

مسار الخلاف في الفكر الاسلامي

واثر الاعتزال فيه

إعداد : ذ. محمد برو
خريج دار الحديث الحسنية

مقدمة :

من الفائدة البدء بتوضيح معنى الاختلاف لغة واصطلاحا فالاختلاف لغة مشتق
اختلف يختلف اختلافا وهو عدم الاتفاق في القول أو الرأي أو الحالة أو الهيئة أو
الموقف فالقائل بفكرة ما يتلقاها شخص بامتعاظ أو بتحفظ وعدم الرضى بمعنى لا
تعجبه بالمرّة ويعارضه بفكرة أخرى مغايرة أو يتخذ موقفا مخالفا له يطلق على
تصرفهما الخلاف أو الاختلاف ⁽¹⁾ أما اصطلاحا فالاختلاف علم يعرف به كيفية إيراد
الحجج الشرعية، ودفع الشبه، وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية ⁽²⁾.

ويعرف الغزالي الاختلاف في مجال علمي الفقه والكلام ⁽³⁾ قائلا : ففي الفقه
استعان الحكام بالفقهاء الذين ساروا في ركابهم، وطلبوا العلم من أجل التوصل الى
نيل العز والجاه من قبل الولادة.

وقد تولد عن ذلك قيام المناظرات في الفقه والتعصب للمذهب وكان ذلك حافزا لهم
على الإقبال على المسائل الخلافية بين أئمة الفقه كل ينصر مذهب إمامه. وكرر القول

(1) د. طه جابر العلوان : أدب الاختلاف في الاسلام ص : 22.

(2) د. حاجي خليفة : كشف الظنون 721/1.

(3) الغزالي : إحياء علوم الدين 41/1.

مرة أخرى بأن ذلك كان عاملا أساسيا وجوهريا في ازدهار التصنيف والإقبال عليه، إذ عرف مجال الخلافات تصنيفات كثيرة وقد اتسمت بالحشو وكثرة المسائل الفرعية الخلافية يستنبطون منها ويضيفون إليها إما مباشرة فيما يعرف بالحواشي وهم يزعمون أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وإيضاح علل المذاهب⁽⁴⁾، أو التعليق عليها الخ.

وفي مجال علم الكلام فحدث ولا حرج فقد عرفت الاختلافات مجالا أوسع واعقد كما سيتضح ذلك فيما بعد حيث كثرت المحاولات والتصنيفات وسلك علم طرقا شتى لاكتشاف فنون المناقضات وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله يصفون عملهم بالنضال عن السنة وقمع المبتدعة.

وتولد عن ذلك فتح باب التعصب والخصومة على مصراعيه وقد أبرز الغزالي عيوب الخلاف وإن كان يعبر عن واقعه الفعلي إلا أن الغزالي قد قدم ذلك بشيء من الحسرة والإثم وهو يكشف عن مثالب أرباب الخلاف، والذين لا يرمون من وراء ذلك سوى إلى مكاسب دنيوية ولم يشتغلوا بالخلاف تقربا إلى الله بمعنى أن الغزالي يرى أن الخلاف بهذه الصفة خلاف مذموم ينبغي الإقلاع عنه.

وذكر ابن خلدون : أن الفقه المستنبط عن الأدلة الشرعية قد كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم ولكن ابن خلدون يحسن الظن بالخلاف ويرى أنه لا بد منه أي من وقوعه، وذكر أنه قد اتسع في الملة اتساعا عظيما، فكان مرتعا ومجالا خصبا للمقلدين أن يقلدوا من شاعوا منهم.

واتضح أن مجال الخلاف : هو الفقه (5) وأسبابه تعود إلى المجتهدين واختلافهم يرجع إلى استخدامهم للنظر العقلي وتنوع افهامهم ومداركهم وأضاف قائلا : لقد اتسعت دائرة الخلاف بسبب المناصرين للمذاهب وتعصبهم لها وحدث الخلاف بينهم وكل منهم يناصر مذهبه بإيراد الأدلة على صحتها ودفع أدلة الخصوم.

(4) ابن خلدون : المقدمة ص : 421

(5) د.علي عبد الفتاح : حقيقة الخلاف ص : 19.

ويرى ابن خلدون : أن علم الخلافات علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه (6) فابن خلدون يراه نوعا من إثراء النظر العقلي ومرونة للذهن ورياضة عقلية، فالخلاف عنده خلاف مشروع (7).

وذكر ابن خلدون أن الخلاف قد حدث حول تفاصيل العقائد والسبب يكمن في الآيات المتشابهات قائلًا وضرر ذلك أن الناس قد اختلفوا من بعد السلف ثم تطرقت البدع إلى العقائد (8).

ويرى بعض الباحثين أن مجال الخلاف قد وجد أولا في الفقه ثم انتقل إلى علم الكلام، والخلاف ليس شرا بإطلاق وليس خيرا بإطلاق.

أنواعه :

يحصّر بعض الباحثين الخلاف في نوعين : محمود ومذموم.

عقد ابن حزم في كتابه الإحكام في أصول الأحكام : بابا في ذم الخلاف بجميع صورته محمودا كان أو مذموما، وأورد عددا كبيرا من الآيات القرآنية التي تنبذ الخلاف وتحذر منه وتنبه على مغبة أمره مثل قوله تعالى ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ (9) ومثل قوله: ﴿ أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ﴾ (10)، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ليست منهم في شيء ﴾ (11).

فابن حزم يحمل التقليد والقياس والاستحسان المسؤولية فيما حدث من الخلاف، وأذكر أن ابن حزم يرفض القياس والاستحسان والتقليد.

وبالرغم من أن الخلاف يؤدي إلى التناقض والشقاق والتفرق في الدين إلا أنه استثنى خلافات الصحابة رضوان الله عليهم وقال بن كل امرئ منهم قد تحرى سبيل الله ووجهة الحق، فالمخطئ منهم مأجور أجرا واحدا لنيته في إرادة الخير، والمصيب منهم له أجران. ويرى ابن حزم : أن كل من يسلك طريق الصحابة فلا

(7) ابن خلدون: المقدمة ص : 421

(8) ابن خلدون : المقدمة ص : 433.

(9) سورة الأنفال آية : 46.

(10) سورة الشورى آية : 13.

(11) سورة الأنعام : آية 159.

يلحقه الذم، وهذا الطريق هو الاخذ بالنص وترك ما يخالفه من تقليد وقياس واستحسان⁽¹²⁾، علما أن ابن حزم له مذهب يعرف بالمذهب الظاهري.

ويرى الشاطبي وجهة أخرى سيما في اختلاف السلف الصالح في الفروع إذ يراه ضربا من ضروب الرحمة (يقال الخلاف بين الفقهاء رحمة).

يقول الشاطبي : فلو كان قول الصحابة قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يفتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان سنة، ومعنى هذا أنهم فتحوا باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه، لأن مجالات الاجتهاد والظنون لا تتفق عادة⁽¹³⁾.

وفيما يلي التفرقة بين الخلاف المحمود والخلاف المذموم.

أولاً : الخلاف المحمود :

يرى الغزالي⁽¹⁴⁾ : أن الاشتغال بالخلاف فرض كفاية لا فرض عين ودون شك انه يقصد العالم المؤهل أي أحاد من الناس، وليس كل الناس لديهم القدرة الكافية في الإتيان بالصواب والرأي السديد.

فالغزالي في مسلكه هذا يضيق من هوة الخلاف واتساع دائرته فهو يحصره بين المتخصصين القادرين علمياً على إبداء الرأي ويملكون الأدوات التي تمكنهم من الاستدلال عليه بمعنى أن يكون صاحبه مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب من المذاهب ومن هذه الوجهة يرى أن الخلاف مباح ولكن بين المجتهدين فحسب. لكون المجتهد يسعى لطلب الحق فلا ضرر إذا اختلف معه مجتهد آخر.

فالاختلاف الذي يذهب في سبيل الوصول إلى الحق ويعين على إدراكه خلاف

محمود.

ثانياً : الخلاف المذموم:

يقوم على الذاتية، دافعه حب الهوى وتحقيق المصلحة والتعصب وعدم الإنعان

للحق.

(12) ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ص : 642.

(13) الشاطبي : الاعتصام 304/391.

(14) الغزالي : إحياء علوم الدين 43/1.

ويندرج فيه خلاف المقلدين لكونه ليس سبيلا للوصول إلى الحق (15).

ذكر الشاطبي : من مساوئه وأسبابه أن يعتقد الانسان في نفسه أو يعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين وهو لم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأيا وخلافه خلافاً.

ومن مساوئه التصميم على اتباع العوائد والتمسك بما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك ويعبر عنه بالتقليد المذموم وقد ذم الله هذا النوع من التقليد في كتابه بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ (16) وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أُولُو جُنَّتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوا : إِنَّمَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (17).

ومن أسباب الخلاف المذموم اتباع الهوى وعدم فهم القرآن الكريم وهذا النوع من الخلاف لم يكن عند الصحابة لكونهم فهموا القرآن الكريم فهما صحيحا وأدركوا مراميه.

ويرتبط الخلاف ارتباطا وثيقا بما يعبر عنه بالنظر والمناظرة والحوار والجدل.

وفي هذا الصدد يقول الحيوي (18) لا فرق بين المناظرة والجدال والمجادلة والجدل من ناحية الاصطلاح بل الفرق بينهما من ناحية اللغة.

فالجدل في اللغة كلمة مشتقة من غير ما اشتق منه النظر الذي اشتقت منه كلمة المناظرة والتي هي نوع من النظر (19).

أما عبد الجبار فإنه قد حل معنى النظر قائلاً : قد يعبر به عن الرؤية الحسية " تقلب للحدقة الصحيحة نحو المرئي التماسا لرؤيته كما يعبر عن الرحمة والإحسان ويعبر عن الانتظار، ويعبر به عن نظر القلب.

وحدد المقصود من نظر القلب أن حقيقة ذلك هو الفكر لأنه لا ناظر بقلبه إلا مفكرا إلا ناظرا بقلبه (20).

(15) د. عبد الفتاح : حقيقة الخلاف ص : 20.

(16) سورة الزخرف آية : 23.

(17) سورة الزخرف آية : 24.

(18) الحيوي : الكافية في الجدل ص : 17-20.

(19) الحيوي : الكافية في الجدل ص : 17-20.

(20) القاضي عبد الجبار : المعنى : 5/12.

والفكر هو تأمل حال الشيء والتمثيل بينه وبين غيره أو تمثيل حادثة بغيرها وهذا ما يجده العاقل في نفسه اذا فكر في الدين والدنيا (21).

وذكر أيضا أن النظر بالقلب له أسماء عديدة من جملتها : التفكير، البحث، التأمل، والتدبر، والرؤية وغيرها. ويقسم نظر القلب الى قسمين :

أحدهما : النظر في أمور الدنيا كالنظر في العلاجات والتجارات.

الثاني : النظر في أمور الدين الذي ينقسم بدوره الى قسمين:

أحدهما : النظر في الشبه لتحل.

الثاني : النظر في الأدلة ليتوصل بها الى المعرفة (22) والنظر له جانبان.

- جانب دفاعي نقدي وجانب إيجابي تركيبي فهو عملية استدلالية يؤتى بها لإقامة الأدلة أو الرد على أدلة الخصوم.

قال الباقلاني : الاستدلال والنظر يعني تقسيم المستدل وفكره في المستدل عليه وتأمله له، المطلوب به علم حقائق الأمور وقد يسمى ذلك أيضا دليلا ودلالة مجازا واتساعا لما بينهما من التعلق، وقد تسمى العبارة المسموعة التي تبنى عن استدلال القلب ونظره وتأمله نظرا واستدلالا لامجازا واتساعا (23).

فالباقلاني : قد وحد بين النظر والاستدلال وعليه فالنظر هو التفكير والرؤية وإقامة الأدلة والحجج والبراهين بمعنى أنه يتضمن الخلاف بسبب تنوع الافهام واختلاف المدارك وتغاير الأدلة ومعارضة بعضها بعضا.

فالمناظرة مأخوذة إما من النظر بمعنى الإبصار أو بمعنى التفات النفس الى المعقولات والتأمل فيها أو بمعنى الانتظار أو بمعنى المقابلة. فلأن كلا الخصمين يقابل ما يقرره الآخر بإبطاله (24) ويعرف الجرجاني : المناظرة اصطلاحا بقوله : توجه المتخاصمين في النية بين الشيين إظهاراً للصواب والمعنى يتضمن الخلاف ويجعله

(21) القاضي عبد الجبار : المعنى : 5/12.

(22) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص : 45.

(23) الباقلاني : التمهيد ص : 14.

(24) عبد الرشيد الهندي : الرسالة الرشيدية على الرسالة

شرطاً لقيام المناظرة. والغرض الوصول الى الصواب ويفترض أن يكون مع أحدهما دون الآخر فهما منذ البداية مختلفان في الرأي، وينظر أحدهما الآخر ليثبت صحة رأيه.

وكلمة إظهار للصواب هو تمييزها عن الجدل والمجادلة والمعنى يتلاقى في جانب منه مع معنى الخلاف وفي الحوار قال الدكتور فضل الله يحدث الحوار عندما ⁽²⁵⁾ يتحرك الانسان من أجل إعطاء فكرته صفة الوضوح التي تتمثل في النفاذ الى كل جانب من جوانب الفكرة حتى يوضحها ولا يدع مجالاً للاستفهام أو الغموض حولها والحوار قد يكون ذاتياً وقد يكون مشتركاً يتدرج فيه من نقطة الى نقطة أخرى ومن مرحلة إلى مرحلة ثانية لتجتمع في إطاره كل النقاط وكل المراحل ⁽²⁶⁾.

سواء كان الحوار ذاتياً أو مشتركاً فهو صراع له دوره الإيجابي مع الذات في توضيح الفكرة وتأييدها وله دوره الدفاعي ضد الآخر الذي يعارضه ليرد عليه. وأحياناً يشتد الحوار ويتحول إلى صدام بتجاذبه حالة الكر والفر والهجوم والدفاع، وتهيمن عليه أجواء التوتر الفكري والنفسي والكلامي من أجل الوصول إلى الغلبة ويوسم بالجدل.

أما المجادلة : فهي مفاعلة من الجدل ⁽²⁷⁾ يقول الجرجاني موضحاً : هي المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم. أما المكابرة فالغرض منها المخاصمة فقط. والجدال بمعنى المخاصمة والمنازعة والتدافع وإقامة الأدلة والبراهين ودفع الحجج هو السمة الغالبة عند المتكلمين.

يقول الغزالي بعد عرضه لعلوم الشرع الثلاثة :

الكلام - الأصول - الفقه : "هذا وكل علم من هذه العلوم إلا وله مواقع إجماع ومثارات نزاع فمطلع الإجماع في الكلام المدركات بالبداية والضروريات. والمعقولات التي يتحد فيها صواب النظر ولا يتعدد كإجماع العقلاء على أن القديم لا يعدم، ومثار الخلاف فيه تعارض الأدلة والشبهات ⁽²⁸⁾."

(25) د. عبد الفتاح : حقيقة الخلاف ص : 26.

(26) د. محمد حسنين فضل الله : الحوار في القرآن الكريم 1/15.

(27) الجويني : الكافية في الجدل ص : 20.

(28) الغزالي : المتحول ص : 5.

والخلاف لم يظهر فجأة عند المتكلمين ولكن كانت له مقدمات وبدايات ترجع إلى البدايات الأولى في الإسلام. ولكنه ظهر بصورة واضحة عند الفقهاء والمتكلمين⁽²⁹⁾.

مراحل تطور الخلاف :

تمهيد :

ان الخلاف أمر طبيعي وفطري في بني البشر، فالإنسان لديه استعدادات ذهنية وإدراكية ونوازع ذاتية وميولات نفعية. ومن الضروري أن يتولد التعبير عن الطموحات في صيغ مختلفة بمعنى لا يأتي على نسق واحد ولكنه يختلف اختلافا حتميا ويصعب على الباحث تحديد بداية الخلاف ولو ضرب وأوغل في قدم الزمن وغاص في أعماق التاريخ.

وأفضل مخرج وأصوب رأي في تحديد البداية في رأي الباحثين أن يحدد الخلاف بعصر النبي ﷺ ثم تتبع مراحل وتطوره عبر العصور المأهولة له كعصر الصحابة والخلفاء الراشدين حتى مقتل عثمان وحدث الفتنة والحروب بين المسلمين وظهر عدد من الفرق السياسية.

وفيما يلي تفصيل لمراحل الخلاف :

المرحلة الأولى : الخلاف في عصر النبي ﷺ

لقد كان النبي ﷺ هو المرجع الأول في الأمور الاعتقادية والأمور العملية الخاصة بالعبادات والمعاملات، وكذا أمورهم العادية أي الحياتية. فالصحابه يأخذون عن النبي كل شيء، ويسألونه عن كل شيء أي عن كل ما يحدث لهم، ويستفتونه في كل ما يقع لهم، ويطلبونه على خفايا حياتهم وخواطرهم وأدق أسرارهم وهو أجسدهم وكان قول النبي هو القول الفصل في كل شيء، إلا أن الصحابة الذين كانوا بعيدين عنه حدثت لهم بعض الأحداث فإذا وجدوا نصا انتهى الأمر وإذا لم يجدوه اجتهدوا في فهم النص وتطبيقه أو اجتهدوا أصلا فيما لا نص فيه.

وكان طبيعيا أن تختلف اجتهاداتهم وآراؤهم. وعندما يرجعون إلى النبي يعرضون عليه الأمر فيقرهم عليه أو يصحح لهم.

(29) د. عبد الفتاح : حقيقة الخلاف ص : 28.

أخرج البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب : لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فادرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها - أي ديار بين قريظة - وقال بعضهم نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنف ويعاتب أحدا منهم (30).

انقسم الصحابة في الواقعة فريقين :

الأول وقف عند ظاهر النص وفهم أن صلاة العصر لا تصلى إلا في ديار بني قريظة.

الفريق الثاني : فهم أن المراد هو الإسراع للوصول فأدوا صلاتهم أي صلاة العصر مادامت لن تؤخرهم عن الوصول إليها.

وتعتبر هذه الحادثة بداية ظهور أهل الظاهر وأهل التأويل وكان تصويب الرسول لكلا الفريقين يعني أن كلا منهما أصاب بعضا من الحق.

وقد روي أنه ﷺ قال لابن مسعود (ض) اقض بالكتاب والسنة اذا وجدتهما فإذا لم تجد الحكم فاجتهد برأيك (31) وقال أبو هريرة (ض) ما رأيت أحدا قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ (32).

وقبل نزول الأذان شاور أصحابه فيما يعملون لوقت الصلاة ومشاورته في القتال يوم الحديبية. وكل هذا يدل على التشجيع من النبي لأصحابه على الاجتهاد ومشاورته لهم وكان لهذا اثر في ظهور مفتين من الصحابة في عهد النبي ﷺ فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وسلمان الفارسي وغيرهم نماذج واقعية على الافتاء في عهد الرسول ﷺ (33).

وورد عن النبي ﷺ ابغض الرجال الى الله الألد الخصم.

وقوله ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وما

ضربوه لك إلا جدلا ﴾ (34).

(30) د. طه جابر العلواني : أدب الاختلاف في الاسلام ص : 34.

فتح الباري 313/7 سنن البخاري في كتاب المغازي.

(31) د. علي عبد الفتاح : حقيقة الخلاف ص : 31.

(32) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(33) مصطفى عبد الرحمن: تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية 136.

(34) سورة الزخرف آية : 58.

وقال أبو سعيد الخدري : كنا جلوسا عند باب رسول الله ﷺ نتذاكر ينزع هذا بآية وينزع هذا بآية فخرج علينا رسول الله ﷺ كما يفتأ في وجهه حب الرمان فقال يا هؤلاء... بهذا بعثتم أو بهذا أمرتم، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فالؤمن يماري ولا يجادل بل يتبع الرشد ويتجنب الغي ويرد ما اختلف فيه وخفي عليه الى العالم به والراسخ في العلم⁽³⁵⁾ ثم ان الصحابة رضوان الله عليهم لم يبحثوا في مسائل ما بعد الطبيعة ولم تثر في عهدهم مشكلات اعتقادية ولم يبحثوا في أمور تتصل بأصل العقيدة مسaire وامتثالا لنهي النبي عن الخوض في تلك الأمور فقال : تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله فان قوما تفكروا في ذات الله فهلكوا⁽³⁶⁾ ولكنهم مالوا الى العبادات والمعاملات وكل ما يتصل بالأمور العملية لشؤون الحياة فاجتهدوا واستثمروا الرأي والقياس وأطلقوا العنان للعقل في استنباط الأحكام الشرعية التي لا نص فيها وأفتوا برأيهم⁽³⁷⁾.

فالقول فيما لا نص فيه مسموح به بل مأمور به قال تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾⁽³⁸⁾.

ثم ان الرأي كثيرا ما كان منحصرا في المسائل الفقهية العملية التي لا نص فيها. والصحابة رضوان الله عليهم وان اختلفوا فانهم قد التزموا بأداب الخلاف فلم يرد ان خاصم أحدهم من خالفه في الرأي ولا نازعه ولا كفره بل يحترم بعضهم بعضا. ذلك انهم فهموا، وطبقوا ما فعله النبي ﷺ مع الفريقين الذين اختلفا في أداء صلاة العصر في وقتها أو الانتظار حتى الوصول لدير بني قريظة فلم يعاتب أحداً من الفريقين سواء الذين اخذوا بظاهر النص أو الذين أولوه.

ثم ان الخلاف كان قليلا حيث كان عصرهم يمثل مرحلة الايمان القلبي والتصديق والتسليم وهي مرحلة يمر بها أي دين ثم تأتي بعد ذلك مرحلة النظر العقلي والتي تحدث فيها الصياغة العقلية للعقائد الدينية.

(35) ابن رجب البغدادي : فضل علم السلف على الخلف ص : 15 - 30.

(36) الغزالي إحياء علوم الدين 4/424.

(37) د. علي عبد الفتاح حقيقة الخلاف ص : 33.

(38) سورة آل عمران آية : 159.

قال أبو عبيدة : لم ينقل ان أحدا من الصحابة رجع في معرفة شيء من القرآن إلى رسول الله ﷺ وقال عليه الصلاة والسلام : " أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتهم اهتديتم".

ونذكر ابن حزم سبب الاختلاف قائلًا : يرجع الى أن كل (39) واحد يفتي بما توافر لديه من أقوال النبي ﷺ وهم لم يكونوا بدرجة واحدة بالنسبة لحضور مجالس النبي وسماع أقواله، فمنهم من تعوقه أسباب العيش والحياة عن الحضور، أو يقعد به المرض أو السفر وغير ذلك من الحالات التي تجعل حضور كل الصحابة لمجالس النبي وسماع كلهم أقواله فلا بد من التفاوت لذلك (40).

المرحلة الثانية : الخلاف في عصر الصحابة:

بالرغم انه كان امتدادا للعهد النبوي لحرص الصحابة على وحدة الأمة ونبذ الخلاف تجنباً للفرقة والانقسام تجلّى ذلك في النهي عن الفتوى إلا عند الحاجة وعدم الاكثار من الرواية عن النبي ﷺ ولقد كان أبو بكر يطالب الراوي بمن يشهد له وكذا عمر وعلي...فانحصر الخلاف في أضيق نطاق.

وعن عمر (رض) لقي رجلاً فقال ما صنعت؟ فقال قضى علي وزيد بكذا فقال لو كنت أنا لقيضت بكذا قال فما يمنعك والأمر إليك؟ قال لو كنت أردك إلى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ لفعلت ولكني أردك الى رأيي والرأي مشترك فلم ينقض ما قال علي وزيد وهذا كثير لا يحصى (41).

وقد ظهر من الصحابة مفتون تفاوتت درجات فتاويهم فمنهم الكثيرون ومنهم المتوسطون ومنهم المقلون (42).

علما أن الخلاف قد سبق في مرض النبي ﷺ قال : ائتوني بقرطاس اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعدي.

(39) مصطفى عبد الرزاق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص : 15.

(40) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ص : 237.

(41) مصطفى عبد الرزاق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص : 168.

(42) ابن حزم الإحكام في أصول الأحكام ص : 666.

وربما كان أهم مظهر للخلاف بعد وفاة النبي مباشرة فيمن يخلفه قال الأشعري :
وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم عليه السلام اختلافهم في الأمة :
أي الإمامة.

فقد اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بمدينة رسول الله ﷺ وأرادوا عقد الإمامة لسعد بن عباد فاعلم أبو بكر أن الإمامة لا تكون إلا في قريش مستشهدا بقول النبي ﷺ الإمامة في قريش والاقتيال على وشك الوقوع بين المهاجرين والأنصار. وانتهى الأمر ببيعة أبي بكر وسرعان ما اتفق المسلمون على خلافته وانقادوا لطاعته⁽⁴³⁾

ويكتسي هذا الخلاف صبغة سياسية لكونه يتعلق بالخلافة ثم تطور مع ظهور ما أطلق عليهم المرتدون حيث امتنعت بعض القبائل عن أداء الزكاة. وادعى النبوة مسيلمة الكذاب ووقع الخلاف في محاربة الممتنعين عن أداء الزكاة قال عمر بن الخطاب كيف نقاتلهم وقد قال ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وقال أبو بكر أليس قد قال إلا بحقها؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو منعوني عناقا مما أدوه إلى النبي ﷺ لقاتلهم عليه⁽⁴⁴⁾.

وتمخضت الحياة الجديدة عن إثارة بعض المشكلات المتصلة بالعقيدة سيما مشكلة القضاء والقدر. فقد روي أن عمر أتى بسارق فقال لم سرقت؟ فقال قضى الله علي ما أمر به فقطعت يده، وضرب أسواطاً فليل له في ذلك، فقال القطع للسرقة، والجلد لما كذب على الله، وقال قتلة عثمان إنما قتله الله فقالوا له حينما حاصروه ورموه: الله يرميك فقال كذبتُم لو رمانني ما أخطأني⁽⁴⁵⁾. وورد أن علياً (ض) قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا قلعة إلا بقضاء الله وقدره. وفي حوار علي مع شيخ قال: لعلك تظن قضاء واجبا وقدر حتماً ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمداً لمحسن ولما كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء ولا المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن أن الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً ولم يكلف مجبراً ولا بعث الأنبياء

(43) الأشعري مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين 1/34.

(44) الشاطبي: الاعتصام ص: 519.

(45) ابن المرتضى: المنية والأمل ص: 8,7.

وقال : ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار، فقال الشيخ وما ذلك القضاء والقدر؟ قال علي أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبوالدين إحساناً⁽⁴⁶⁾، فنهض الشيخ مسروراً مما سمع وانشد :

أنت الامام الذي نرجو طاعته ١١١ يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا ١١١ جزاك ربك بالإحسان إحساناً⁽⁴⁷⁾

إلا أن إثارة هذه المشاكل كانت حوادث فردية وقاوم الخلفاء أصحابها مخافة من تسرب الأهواء وتعدد الطرق والمسالك. بينما كان الخلاف الفقهي قد فرض نفسه وبدأ يتطور بسرعة واستفحلت الخلافات في الأحكام الفروعية كاختلافهم في الكلالة وميراث الجد مع الإخوة وعقل الأصابع وديات الانسان.

ثم تطور الخلاف بعد مقتل عثمان، وحمل البعض عليا المسؤولية في تهاونه مع القتلة وعدم تعقبهم والبحث عنهم وعقابهم واكتسى الخلاف سمة سياسية حادة زادها نشوب الحرب بين المسلمين تأججا واتصل ذلك بالعقيدة، وهل الخلافة بالنص أو التعيين؟.

فتشعبت المواقف واعتبر البعض : الإمامة أصلا من أصول الدين قال البعض ان الأئمة تظهر عليهم المعجزات كالرسل وانهم حجج الله كالرسل لكن لا ينزل عليهم الوحي كالرسل واختلفوا هل يجوز للأئمة نسخ الشرائع أم لا؟.

وقال بعض بعظمة الامام، واجمع الروافض على تصويب علي في جميع حروبه وتخطئة كل من حارب عليا واختلفوا في الحكم على من حارب عليا فمنهم من قال بكفره ومنهم من قال بفسقه وليس بكافر⁽⁴⁸⁾.

ورأت الشيعة ضرورة جمع الخليفة بين السلطتين الروحية والزمنية وعارضوا مبدأ الاختيار، فالإمامة ليست قضية مصلحة تناط باختيار العامة وينتصب الامام

(46) سورة الإسراء الآية : 23.

(47) ابن المرتضى : المنية والامل ص : 87.

(48) الاشعري : مقالات الإسلاميين 1/129.

بنصبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله وإهماله ولا تفويضه للعامة (49).

ورأى الخوارج أن في صلاح الإمامة صلاح الأمة وفي فسادها فساد الأمة وفي شروطها يرى الخوارج أنه يجوز أن يكون الإمام غير قرشي وليس بلام أن يكون الإمام قرشيا.

ذكر الشهرستاني أنهم جوزوا أن تكون الإمامة في غير قریش وكل ما ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتتاب الجور كان اماما.

وتمسك الخوارج بأن القرآن لم يذكر نسلا معيناً يكون منه الإمام بل اشترط العدل فقط في الحاكم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعِظْمِكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (50).

فالمعنى يدل على العموم ولا يجوز تخصيصه بقریش وحديث أن أمر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوه فلا وجه لتقييد العام.

وذهب أهل السنة والجماعة إلى أن من شروط الإمامة أن يكون الإمام قرشيا. والنقاش في هذه النازلة طويل ومتشعب وعرف خلافا حادا بين الفرق الإسلامية ورأى بعض الخوارج وجوب الإمامة، وإن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة (51)(52).

وقال أهل السنة والجماعة أن من شروط الإمامة أن يكون الإمام قرشيا واحتجوا بقول الرسول ﷺ قدموا قریشا ولا تتقدموها (53)، وفتح التحكيم بين علي ومعاوية باب

(49) الشهرستاني : الملل والنحل 1/195.

(50) سورة النساء آية : 59,58.

(51) الجويني : الإرشاد ص : 426.

(52) الشهرستاني : الملل والنحل 1/171.

(53) الجويني : الإرشاد ص : 426.

الخلاف على مصراعيه حيث عرف تطورا خطيرا وشمل عدة جوانب منها ما له صلة بالعقيدة وكثرت التساؤلات وبدأ البحث عن حقيقة الايمان وافترقت الرافضة إلى ثلاث فرق :

الأولى وتشكل جمهور الرافضة قالت بأن الايمان هو الإقرار بالله وبرسوله والإمام وبجميع ما جاء من عنده والمعرفة عندهم ضرورة وقال قوم من متأخريهم : ان الايمان هو جميع الطاعات وان الكفر جميع المعاصي ويثبتون الوعيد .

وقالت الفرقة الثالثة ان الايمان اسم للمعرفة والاقرار بسائر الطاعات. وقالوا بشفاعة أئمتهم وهي عندهم من شفاعة النبي. واجمعوا على ان مرتكبي الكبيرة معذبون في النار خالدون فيها لا يخرجون منها ولا يغيبون عنها⁽⁵⁴⁾.

وقال الخوارج ان الايمان تصديق بالقلب واقرار باللسان وعمل بالأركان واجمعوا - ماعدا النجدات - على ان كل كبيرة كفر واجمعوا ان الله سبحانه يعذب اصحاب الكبائر دائما⁽⁵⁵⁾.

واعتبر المرجئة صاحب الكبيرة مومنا وقالوا كما لا ينفع مع الكفر طاعة لا يضر مع الايمان معصية⁽⁵⁶⁾، وقال الشيعة بعدم خروج مرتكب الكبيرة من الايمان. وقال المعتزلة بمنزلة بين المنزلتين.

وارتبطت المشكلة بالاحداث السياسية وبخاصة مشكلة الجبر والاختيار. وقال عبد الجبار ان أول من قال به وظهره معاوية وان ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه ليجعله عذرا فيما يأتيه، ويوهم انه مصيب⁽⁵⁷⁾.

ويرى بعض الباحثين ان الخلاف حول المسائل المتصلة بالعقيدة قد نشأ تحت ظلال السيف بمعنى ان الخلاف قد صبغ بالعنف والقوة.

والتجأت الشيعة الى التأويل الرمزي للآيات القرآنية وتوقف الخوارج عند ظاهر النص. فاصبح الرأي يمثل جانبا ذاتيا يسعى كل واحد لنصرتة.

(54) الأشعري : مقالات 149/1.

(55) الأشعري : مقالات 163/1....

(56) البغدادي الفرق بين الفرق : 202.

(57) القاضي عبد الجبار : المعنى 20/8.

وارتبط الخلاف بظاهرة التكفير والعنف، فتفتت وحدة الأمة بحدوث النزاع والشقاق فاقبرت حرية الفكر، فوجد الخلاف متنفساً في المسائل المتصلة بالعبادات والمعاملات وتطور.

ولكن القاضي عبد الجبار عد هذا النوع من الخلاف بأنه ليس خلافاً لأن بعضهم يصوب بعضاً (58).

وتميز اختلاف الفقهاء بأداب الجدل والمناظرة واحترام الرأي الآخر وتجلى ذلك في رسالة الليث بن سعد الى مالك بن أنس :

واسفر الخلاف عن ظهور مدرستين في العالم الإسلامي الأولى يغلب عليها الأخذ بالرأي وموطنها العراق والآخرى يغلب عليها الأخذ بالحديث وموطنها الحجاز. وفي عصور التقليد خرج الخلاف عن الالتزام بأداب الخلاف. قال العزالي : ان هؤلاء غلب عليهم طلب الدنيا ولم يحافظوا على طريقة السلف وتعلقوا بالسلطين والأمراء ومع ذلك لم تكن بينهم اتهامات بالكفر.

وفي القرن الرابع الهجري تكونت المدارس الكلامية لاهل السنة (الماتريدية الاشاعرة) على يد أبي منصور الماتريدي المتوفى سنة 333 هـ وعلى يد أبي الحسن الاشعري المتوفى سنة 324. وبالرغم من أن هذه الفرق مسبوقة بطبقة الفقهاء الأربعة حيث كانت لهم ردود على آراء المعتزلة، وكانت لهم بدايات كلامية وآراء على سبيل الجملة لا التفصيل تخالف آراء المعتزلة.

وكان الفقهاء الأربعة يتخرجون من الخوض في علم الكلام وأن ابدوا فيه رأياً فعلى مضض.

وكان للصفاتية سبق قبل ظهور الماتريدية الاشاعرة سموا بهذا الاسم لكونهم يثبتون الصفات لله تعالى مقابل موقف المعتزلة من الصفات (59).

ويمثل عبد الله بن سعيد بن كلاب. وأبو العباس القلاصني البداية الأولى لتيار أهل السنة.

(58) القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال ص : 142.

(59) علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ص : 272/1.

ومع مولد الماتريدية والأشعرية تقوى تيار أهل السنة على أسس وقواعد كلامية. وشاعت الأقدار ان يقيم الماتريدي في سمرقند والاشعري في بغداد يعلنان مذهبهما المعارض لمذهب المعتزلة منتصرين لأراء أهل السنة. فقامت المناقشات والمجادلات بين أصحاب كل تيار ضد اصحاب التيار الآخر، وعلى نهجهم سار الاتباع فتباعدت هوة الخلاف. فانطلق كل من متكلمي اهل السنة والمعتزلة يقررون آراءهم، اتهم الفكر الاعتزالي بالاستعلاء واحتقار العامة وعدم الاكتراث بوجودهم ورضاهم وسخطهم فاعلن المعتزلة جهارا انه لا شفاعاة للنبي عن الكبائر دون توبة ولاينفع الميت بعد موته دعاء أهله ولا استغفار الأحاب وكذا قراءة القرآن، آراء كان لها اثر قوي في مساس وجدان العامة وعواطفهم. فنقم الناس على القاضي عبد الجبار الذي قال في حق صاحب ابن عباد عند موته وهو في نظر الناس ولي نعمته: أنا لا اترحم عليه لأنه لم يظهر توبته قال الكتبي معلقا: وطعن الناس عليه لذلك ونعتوه مع كثرة احسان صاحب عليه، ولا يشفع للقاضي عبد الجبار عند العامة ان يكون القاضي قد أثر نصرة مبدئه في خلود فاعل الكبيرة في النار على طلب المغفرة للمحسن اليه مع علمه لمجونه ومجالس لهوه ومشاركته في اغتصاب الاموال ومصادرة الاملاك (60).

وفيما يلي الملامح العامة للفكر الاعتزالي :

- تقديم العقل على النص لدى التعارض.

- وجوب الصلاح والاصلاح على الله.

- المنزلة بين المنزلتين

واستطاع أبو الحسن الاشعري أن يجر المعتزلة الى طلب ذكر حكمة الله في ثلاثة: مومن وكافر وطفل وتذكر الكتب الحوار في شأنهم بين الاشعري وشيخه المعتزلي ابن علي الجبائي دليلا على اخفاق المعتزلة.

(60) د. احمد محمود صبحي : علم الكلام ص : 35.

وكان المعتزلة السبب الرئيسي في محنة احمد بن حنبل ولم يطق العامة فكرهم فاحرقوا كتبهم ومصنفاتهم.

وتعد الماتريدية والأشاعرة أكبر حركة فكرية حاورت المعتزلة في عدد كبير من الموضوعات يطول الكلام فيها ومن الصواب تقديم بعض النماذج منها.

النموذج الأول : افعال الله تعالى.

فالأشاعرة ترى أنه تعالى صانع الاجسام والأعراض كلها خيرها وشرها وترى المعتزلة ان الله خالق الاجسام دون الاعراض وان المتولدات وسائر انساب العباد ليست من خلق الله عز وجل.

ويرى الأشاعرة بان الله خلق الخلق لا لعة، بينما يرى المعتزلة بأن الله خلق الخلق لعة هي منفعة الخلق لتعالي الله سبحانه عن النفع.

ويرى الأشاعرة : أن الله تعالى إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب ان شاء أثابهم وان شاء عاقبهم وان شاء اعدمهم ولم يحشرهم، لا يبالي لو غفر لجميع الكافرين وعذب جميع المومنين لقولهم إن المالك يتصرف في عبيده كيف شاء بينما يرى المعتزلة : أن الله تعالى إذا كلفنا بالأفعال الشاقة فلا بد من أن يكون في مقابلها من الثواب ما يقابله.

بينما يرى المعتزلة أن الثواب والعقاب استحقاق وليس تفضلا وهذا يعني عدم جواز خلف الوعد والوعيد. هذه بعض الفقرات في الخلاف بين متكلمي السنة والمعتزلة.

أما الخلاف بين أهل السنة أنفسهم يعني بين الماتريدية والأشاعرة فلم يكن واضحا بالرغم من أنه قد قامت بينهما مناظرات ولكنها لم تتسم بالحدة ولم يكفر أحدهما غيره.

وقد حصر المقرئزي الخلاف بينهما في بضع عشرة مسألة وذكر السبكي نفس العدد وأوصلها البياضي الى خمسين مسألة وأفرد الشيخ زاده كتابا لمسائل الخلاف

اسماه نظم الفرائد وجمع الفوائد وكتاب آخر ينتصر لرأي الأشعرية هو الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية، هذه مجموعة من المعطيات عن الخلاف بين أهم التيارات السائدة في العهود الإسلامية.

إن الطبيعة العقلية لعلم الكلام تعد اكبر عامل في توسيع شقة الخلاف في الفكر الإسلامي، وبعبارة أوضح فإن المعتزلة لهم اثر واضح في مختلف مجالات الفكر ولا سيما طبيعة الموضوعات المتعلقة بأصول الدين وعلى رأسها وجود الله ووحدانيتها وصفاته وأفعاله والايمان بالرسل والكتب المنزلة عليهم والملائكة واليوم الآخر. وكان الخلاف متشعبا وقويا حول فهم تلك الأصول وكيفية اثباتها فاخذ كل فريق يكفر غيره ويتهمه بالخروج عن الدين وعن جماعة المومنين، والغريب كل الغرابة ان المتكلمين قد كفر بعضهم بعضا في مسائل لا يمكن القطع فيها مثل قولهم الله عالم بذاته وعالم بعلم ومبدئا ان علم الكلام قام على مجادلة الزناقة والثنوية وأهل الديانات المخالفة للإسلام. فنازل المتكلمون الخصم وقارعوا الحجة بالحجة فتولد عن ذلك انتعاش الحركة العلمية وظهور الترجمة واطلاعهم على الشقاكات الاجنبية والبحث عن الادلة مما اكسب المتكلمين بصفة عامة دربة عقلية في منازلة الخصم والرد على دعاويه وابطالها وأدى تدخل السلطة السياسية في الخلافات الكلامية الى تاجج وحماس وانعكس ذلك على المتكلمين انفسهم وتعتبر مسألة كلام الله وخلق القرآن من المشاكل الرئيسية التي تصارع فيها الفكر وبرز فيها اثر الاعتزال واضحا، فاعتنق الخلفاء الاعتزال واقروه عقيدة رسمية للدولة يستتاب من اجلها ويعاقب عليها ان لم يقل بقول المعتزلة ان القرآن مخلوق وهو كلام الله تعالى، فانعكس ذلك على المواقف وتعدى الخلاف في الرأي الى العقوبة والجزاء من اجل الرأي وكان ما يدعى بـ " فتنة خلق القرآن" بمنحنة الامام احمد بن حنبل الذي عذب من اجل رأيه في هذه المسألة وانعكس الخلاف على التعريفات بين المعتزلة والاشاعرة والماتريدية.

وامتد اثر الاعتزال وشمل كل جوانب الفكر ويعد كتاب المستصفى للامام الغزالي نموذجا حيا لاثر الاعتزال في أصول الفقه وكتاب إجام العوام عن علم الكلام وانقسام العلماء بين مؤيد لعلم الكلام ومعارض له والتحذير منه، وكان لكتب التفسير التي ألفها اهل الاعتزال اثر واضح في النفس مثل كتاب الكشاف للزمخشري

